

التفسير المطول - سورة القمر 054 - الدرس (1-5): تفسير الآيات 1-8

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: 1995-11-03

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة والتسليم على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه واجعلنا من يسمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أيها الأخوة المؤمنون: مع الدرس الأول من سورة القمر.

(اقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ)

أحد أشرطة الساعة بعثة النبي الكريم:

الساعة يوم القيمة، واقترب أي اقترب مجئها، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((بعثت أنا والساعة كهاتين))

(رواه الطبراني عن سهل بن سعد)

أي أن بعثة النبي عليه الصلاة والسلام أحد أشرطة الساعة، وقد ذكر النبي عليه الصلاة والسلام عن أشرطة الساعة شيء الكثير بعضها وقع وبعضها لم يقع.

استعداد الناس لساعة الفراق :

أيها الأخوة:

(اقْرَبَتِ السَّاعَةُ)

أي يا أيها العباد هيؤوا أنفسكم لهذه الساعة، ويمكن أن نفهم نحن من هذه الآية أن لكل مائة ساعة قد تأتي قبل يوم القيمة، فالأخير أن يستعد الإنسان ل ساعته، ساعة فراق الدنيا، وساعة لقاء ربّه، وأن يستعد لهذه الساعة بمعرفة الله، ومعرفة كتابه، ومعرفة سنته النبي، وبالنوبة، والعمل الصالح، والبذل، والتضحية، لأن يقول إنسان ناصح لطلابه: اقترب الامتحان، فما معنى اقترب الامتحان؟ أي ينبغي أن نستعد له بالدراسة، وإتقانها، وبالحفظ، واستغلال الوقت، وعدم تضييعه، وبالتعلم، والمذاكرة، والتدريب من أجل أن ننجح في الامتحان، فاقترب الامتحان أي ادرسوه، واقترب الساعة يوم القيمة أي استعدوا لهذا اليوم، يوم الدين، أو يوم الدينونة، أو الجزاء، أو الحساب، يوم يقوم الناس لرب العالمين، ويوم الحق، ويوم الفصل، وأن يأخذ كل ذي حق حقه، وأن تكشف الحقائق، وتصبح واضحة كالشمس، أي يوم تقع الواقعه:

(لَيْسَ لِوَقْتَهَا كَانِيَةً (2) حَافِظَةً رَافِعَةً (3))

(سورة الواقعة)

ومن لوازم وجود الإله وهو الحق أن يقيم الحق، وأن تسوى كل الحسابات، وأن تؤدى كل الحقوق، وتدفع كل الغرامات، ويحاسب الإنسان عن كل أعماله، هذا هو يوم الدين.

الاستقامة سبب الإيمان بالحساب:

أيها الأخوة: ذكرت هذا قبل درسين سابقين: وفرق كبير بين أن تؤمن بالحساب وبين أن تتورّهم العبيثية، إن توهّمت العبيثية فلن تستقيم على أمر الله، أما إن آمنت بالحساب فلا بد من أن تستقيم، والله عزّ وجلّ كل أسمائه محققة في الدنيا إلا اسم العدل فلا تراه واضحاً جلياً إلا يوم القيمة، فالله سبحانه وتعالى يبدأ الخلق وقد بدأه، ثم يعيده لماذا؟

(إِنَّجَزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا شَاءَ)

(سورة طه)

تسجيل حركات الإنسان وسكناته يؤدي إلى انضباطه:

مرة ركبت مع صديق لي في مركته، وقد وضع صورة لها وقد التقى من جهاز الرادار، وأرسلت له إلى البيت، أي هذا أنت، في التاريخ، وال الساعة، والدقيقة، والسرعة كانت كذا، وصورة المركبة ولوحتها، وهذا الشيء مُسْكِتٌ، فلا يستطيع أن يقول كلمة، ولا حرفاً، لم أكن أو كنت، في الوقت، والتاريخ، واليوم، والمكان، والسرعة، وصورة المركبة مع لوحتها، فإذا كانت كل أعمالنا عند الله هكذا، وهي أعمالنا مسجلة بدقائقها، وتفاصيلها، ووقتها، ومكانها، وزمانها، ويوم القيمة تعرض علينا.

(مَالْ هَذَا الْكِتَابُ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا حَصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا)

(سورة الكهف)

إذا توهّم الإنسان أن جهازه الهاتفي مراقب فكيف يتكلّم؟ وإذا راقب إنسان إنساناً، أي مخلوق راقب مخلوقاً فإنه يضبط أشدّ الانضباط، فكيف إذا أتيق أن على كتفيه ملkin يسجّلان عليه كل حركاته وسكناته، وكل أعماله خيراً وشرّها، صالحها وطالحها؟

استعداد الإنسان ل يوم القيمة بالتوبة:

كأن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(أَفَتَرَبَّتِ السَّاعَةُ)

أي يا عبادي استعدوا، استعدوا لها بالتوبه، حاسبو أنفسكم قبل أن توزن عليكم، فملك الموت تخطّاكم إلى غيركم وسيتخطّى غيركم إليكم فخذوا حذركم.

(اقترَبَتِ السَّاعَةُ)

إذا أردت أن تفهم الساعة على أنها يوم القيمة وهذا هو الأصل، ولكن الشيء الواقعي والقريب مثلاً أنه لكل مثلاً ساعته التي لابد منها، وقد تأتي قبل يوم القيمة، والزمن يمضي، والإنسان في خسر لأن الزمن يستهلكه، وكلما انقضى يوم انقضى بضع منه.

(اقترَبَتِ السَّاعَةُ)

المؤشرات التي تدل الإنسان على اقتراب ساعته:

أحياناً الإنسان يشيب شعره، ويضعف بصره، وسمعه، وتسقط أسنانه، وينحني ظهره، ويتآلم في مفاصله، وتضطرب نسب دمه، وتزداد الحموض، والمواد الدسمة، فهذه المؤشرات تدل على أن الساعة قد اقتربت، يا عبدي لقد اقترب اللقاء فهل أنت مستعد؟
إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسؤول

تعصي الإله وأنت تظهر حبه ذاك لعمرى في المقال شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعنه إن المحب لمن يحب يطيع

إذا الآية الكريمة:

(اقترَبَتِ السَّاعَةُ)

أي استعدوا لها بالتوبه:

((الله أفرح بتوبه عبده من العقيم الوالد، ومن الصال الواجب، ومن الظمان الوارد))

(أخرجه ابن عساكر في أماليه عن أبي هريرة)

أبواب التوبه مفتوحة لكل الناس:

الشيء لا يصدق أن الماضي كله يلغى بثانية، من تاب من ذنبه كمن لا ذنب له وإذا ذهب الإنسان إلى بيت الله الحرام تائبًا منيًّا مخلصًا عاد من ذنبه كيوم ولدته أمّه، وإذا جاءه رمضان وصام صوماً صحيحاً، صام نهاره وقام ليله وعبد ربّه خرج من رمضان كيوم ولدته أمّه وأعتقه الله من النار، وإذا تاب العبد، وصام، وحجّ، وصلّى الجمعة وتاب في أثنائها كفّر الله كل سيناته التي كانت قبلها، فأبواب التوبه مفتوحة على مصارعها، والله سبحانه وتعالى يريدها أن نتوب، والدليل:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ)

(سورة النساء: آية "27")

و ما فتح لكم باب التوبة إلا ليتوب عليكم، وما فتح لكم باب الاستغفار إلا ليغفر لكم، وما فتح لكم باب الدعاء إلا ليستجيب لكم، قال لكم:

(ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)

(سورة غافر: آية "60")

استغفروني أغفر لكم، توبوا إلي أتب عليكم، فماذا بقي؟ وهذا معنى:
(اقْرَبَتِ السَّاعَةُ)

العاقل من كسب وقته ولم يضيعه في أشياء تافهة:

كأن تقول لطالبٍ في نهاية العام الدراسي: اقترب الامتحان، أي اذهب إلى النزهات؟ أو نم إلى منتصف النهار؟ أو تسلى بأشياء سخيفة؟ فهل يعقل هذا؟ ماذذا نقصد من قولنا لطالبٍ على وشك الامتحان: اقترب الامتحان؟ أي انتبه، واستنفر، وشمير، واسكب وقتك، وإياك أن تضيعه، هذا معنى:

(اقْرَبَتِ السَّاعَةُ)

فالساعة أي يوم القيمة، والساعة ساعتنا كلنا، ساعتنا ساعة مغادرة الدنيا:
(وَأَشَقَّ الْقَمَرُ)

الكون أكبر معجزة للإنسان:

الله عزَّ وجلَّ كما ورد في سورة الإسراء في قوله تعالى، الله جلَّ جلاله ذكر في هذه السورة الكريمة حديثاً:

(وَلَقَدْ صَرَقْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (89) وَقَالُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَخْرُجَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبْوُعاً (90) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نُخْلِلٍ وَعِنْبٍ فَتَخْرُجَ النَّهَارَ حَلَالًا (91) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةَ قَبِيلًا (92) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ رُخْرُفٍ أَوْ تَرْقُى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ تُؤْمِنَ لِرُقْيَكَ حَتَّى تَنْزَلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَفْرُوهُ فَلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولاً (93))

(سورة الإسراء)

أي أن كفار قريش طالبوا النبي بمعجزاتٍ حسيّة، وهذه الآيات التي تلوتها عليكم تؤكّد هذه الحقيقة، طالبوا بمعجزاتٍ حسيّة، وغاب عنهم أن القمر أعظم من انشقاقه، وأن الشمس أعظم من انطمامها،

وأن نظام الكون على ما هو عليه أعظم من خرقه، ولكن الكافر يتعنت، ويطمس ما يوصله إلى الحقيقة، وقد ورد في الأثر: أن حسبكم الكون معجزة، الكون وحده.

خلق الإنسان معجزة من معجزات الرحمن:

ابنك الذي أمامك كيف خلق من نقطة لا ترى بالعين؟ و الخمسة ملليون نطفة تشكل اثنين سنتيمتر مكعب، أو سنتيمتراً مكعباً، والطفل خلق من نطفة واحدة لفحت بويضة، وانقسمت إلى عشرة آلاف قسم، وتشكل الدماغ، مئة وأربعون مليار خلية استنادية لم تُعرَف وظيفتها بعد، أربع عشرة مليار خلية سمراء فيها النشاط الفكري، والمحاكمة، والتصور، والتذكرة، وأعصاب لا يعلم عددها إلا الله، مئة وخمسون ألف كليو متر من الأوعية الدموية في جسم الإنسان، ثلاثة ألف شعرة ولكل شعرة وريدي، وشريان، وعصب، وعضلة، وغدة دهنية، وغدة صبغية، ومئة وثلاثون مليون عصبة ومخروط في شبكة العين لانتقاط الصور، والقلب يضخ ثمانية أمتار مكعبة في اليوم الواحد، والأسرة قد تستهلك في السنة بأكملها متراً مكعباً وقوداً سائلاً، أما القلب ففي اليوم الواحد يضخ ثمانية أمتار مكعبة دون كلل ولا ملل، بدماء، وأذنين، وشريان أبهى، والشرايين قلوب، فالشريان مرن، يأخذ دور القلب فإذا نبض القلب اتسع الشريان، لأنه مرن وإذا عاد إلى وضعه الطبيعي ضخ الدم وبالتالي، فكل شريان مضخة تعين القلب، وحينما تتصلب الشرايين يضعف القلب، وقد قالوا: عمر الإنسان من عمر شرايينه.

كل شيء في الكون يدل على الله:

اكتشفوا الآن أن زيت الزيتون وحده هو الذي يقي من تصلب الشرايين، فالإنسان بوضعه الراهن، أي بعضلاته، وأعضائه، وعظامه، وأعصابه، وجهاز الدوران، وجهاز الهضم، وجهاز التصفية والإخراج

فالإنسان وحده معجزة، والنفحة معجزة، والقمح معجزة، وننزل هذه الأمطار معجزة، وهل يوجد عندنا شيء يتحرك بلا صوت، بربكم؟ فطائرة تحمل خمسة راكب تملأ الدنيا ضجيجاً.

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَ السَّحَابِ)

(سورة النمل: 88)

بلا صوت:

(صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَثْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(سورة النمل: آية 88)

فالحقيقة الإنسان إذا نما عقله يرى أن كل شيء في الكون يدل على الله، وعلى وجوده، وعلى وحدانيته، وعلى كماله، أما الذين يطلبون خرق التواميس فهو لاء ما عرفواحقيقة الكون، ولو عرفوها لذابوا إعظاماً لله عز وجل، لا على خرقه للتواميس بل على خلقه المتقن وصنته المتقنة:

(صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَثْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ)

(مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاقُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (3) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَتَتِينَ
يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4))

(سورة الملك)

وَأَنْشَقَ الْقَمَرُ: آية لها عدة تفسيرات:

(أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَنْشَقَ الْقَمَرُ)

كلمة انشق القمر العلماء فسروها تفسيرات عديدة، منهم من قال: " القمر انشق حقيقة مررتين في عهد النبي، وانشقاق القمر من معجزاته الحسينية "، إذ علق كفار مكة إيمانهم على آية حسينية فقد جاءت هذه الآية الحسينية وانشق القمر، وبعضهم قال: " اقتربت الساعة واقترب انشقاق القمر " ، واقتربت الساعة تنبئها آية كريمة وهي:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل: آية ١١)

ومعنى هذا أنه لم يأتي، ولكن الإله إذا قرر شيئاً فكانه وقع.

الله تعالى وحده يستخدم الفعل الماضي ليعبر عن المستقبل:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ أَتَخْدُونِي وَأَمَّيَ إِلَهِيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ
مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قَلْتُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلُمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي
نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَامُ الْغُيُوبِ (116) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمْرَتِنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّيْ وَرَبِّكُمْ وَكُنْتُ
عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَا تَوَفَّيْتِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ (117))

(سورة المائدة)

هذا الشيء لم يقع بعد، فلماذا عبر الله عنه بالفعل الماضي؟ قالوا: هذا الماضي الذي عبر الله به عن المستقبل لتحقيق الواقع، والإنسان مهما كان قوياً، ومهما كان متمنياً فإنه يقول لك: سأفعل كذا بعد أسبوع، وقد يموت قبل أن يفعل، ولا توجد جهة في الكون تستطيع أن تجزم بفعل شيء قبل وقوعه إلا الله، ولذلك فربنا وحده إن عبر عن المستقبل يستخدم الفعل الماضي.

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ)

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

إنه لم يأتٌ بعد، والدليل:

(فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

فالله جل جلاله إذا وعد بشيء وقع.

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة يس)

انشقاق القمر من المعجزات الحسية للنبي الكريم:

إما أن نفهم الآية على أن القمر انشقَ حقيقةً، وهو من المعجزات الحسية للنبي عليه الصلاة والسلام، كما قال كفار قريش: يجب أن تأتينا بالملائكة قبلياً، وأن تفجر الأرض ينبعاً.. إلخ، فكانت هذه الآية إجابة لطلبهم كي يؤمنوا، وبعضهم قال: "انشقاق القمر لم يقع بعد لقوله تعالى:

(فَإِذَا انشَقَتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالْدَهَانِ)

(سورة الرحمن)

والقمر من السماء، فإذاً نعتقد أن القمر لم ينشقَ بعد، وإنما أن نعتقد كما قال بعض المفسرين: إنه انشق.

انغمس الكفار في شهواتهم و عدم إصغائهم إلى الحق:

على كل العبرة فيما يلي:

(اَفَتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ (2))

وهؤلاء الكفار الذين انغمسو في شهواتهم إلى قمة رؤوسهم، وأرادوا الدنيا، وأرادوا مالها، ونساءها، وزينتها، ومباهجها، ومتعها الرخيصة، فهؤلاء لا يستطيعون أن يصلعوا إلى الحق لأنهم إن أصغوا إليه قيدهم وأجلهم، وحدّ حركتهم، فالذين ينغمدون في ملذاتهم إلى قمة رؤوسهم، فهؤلاء الذين يرددون الحق، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((الْكَبِيرُ بَطَرُ الْحَقَّ، وَغَمَطَ النَّاسَ))

(أخرجه مسلم و الترمذ عن عبد الله بن مسعود)

بطر الحق أي ردُّ الحق، تأتيه آية كالشمس في رابعة النهار، فيركب رأسه وينكرها، ويأتي زلزال واضح جداً فيقول لك: اضطراب في القشرة الأرضية، ولا يقبل أن تفسّر الأشياء تفسيراً سماوياً، ولا يقبل إلا التفسير الأرضي:

(وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَارَتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ)

(سورة الزمر: آية 45)

أما إذا فسرت الأمور تفسيراً أرضياً شركياً فيقبلونه.

الآيات الكونية والتكتونية والقرآنية تدل على الله:

إذَا:

(وَإِنْ يَرَوْا آيَةً)

آية كونية، وما أكثر الآيات الكونية، فالله عز وجل ونحن تحت سمعنا وبصرنا نرى بلاداً أصابها الجفاف سنواتٍ عجافاً أكلت الأخضر واليابس، ونرى بلاداً أصابتها أعاصير فدمّرت كل شيء، وبلاداً أهلكت بالفيضانات، وبلاداً أهلكت بحروبٍ أهلية، فالله جل جلاله يقول: (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخُوفِ بِمَا كَاثُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

إنه شيءٌ مخيف، فالآيات تتلى، وهي بين أيدينا، نصغي إليها صباحاً ومساءً فمركبٌ فضائيةٌ سموها المتحديّة احترقـت بعد سبعين ثانية وعليها سبعة روّادٌ فضاء وفيهم امرأة، يتحدون من؟ أحياناً توضع الثقة كلها بشيءٍ في يأتي إعصارٍ يدمّره، أو زلزالٍ يهدمه، وهذه آيات، والذي فعله الله بالأقوام السابقة آيات، وهناك آياتٌ كونية، فالشمس والقمر آيتان، الليل والنهار آيتان، والسماءات والأرض آياتٌ تدل على عظمة الله عز وجل، فخلق الإنسان آية، وطعمه وشرابه، والأسماك، والأطياف، والهواء، والماء، هذه آياته الكونية، وآياته التكتونية، وآياته القرآنية، فالكون خلقه، والقرآن كلامه، والأحداث أفعاله، وكل هذا يدل عليه.

معاني كلمة مستمر:

(وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ)

سُحرنا.

(مُسْتَمِرٌ)

فهي معان٣ ثلاثة، مستمر أي حكم، ومتقن، و دائم، فكثيراً ما يأتي الناس بمثل هذه الأقوال، سحر دائم، أو ذاهب لا قيمة له وسوف ينقضي، فهو إما ذاهب، أو مستمر، أو حكم.

(وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ)

فهم كالنعامـة تماماً حينما تواجهـ الحقـيـقة تغرس رأسـها في الرـمل وـتـوـهـمـ الحـمـقاءـ أنهاـ نـجـتـ، لكنـهاـ لمـ تـنـجـ، أنـ تـغـمـسـ النـعـامـةـ رـأـسـهاـ فيـ الرـمـلـ مـتـوهـمـةـ أنـهاـ نـاجـيـةـ منـ الخـطـرـ القـرـيبـ مـنـهاـ فـهـوـ مـنـتـهـيـ الحـمـقـ وـالـغـباءـ، ولـذـلـكـ بـعـضـ الـكـفـارـ كـالـنـعـامـةـ يـغـرـسـونـ رـؤـوسـهـمـ فيـ الرـمـلـ وـيـتـعـامـلـونـ عـنـ الـحـقـائـقـ الـدـينـيـةـ الـبـاهـرـةـ عـلـىـ تـوـهـمـ أـنـهـ سـيـنـجـونـ.

لَنْ تَكُونْ فِي مَأْمَنٍ مِّنْ عَذَابِ اللَّهِ إِلَّا إِذَا كُنْتَ عَلَىٰ مِنْهَجِهِ:

النقطة الدقيقة جداً التي ألحّ عليها في هذه المناسبة، أنه إذ لم تؤمن أنت بقانون فلا تستطيع أن تمنع وقوعه، فقانون السقوط إن لم تعبأ به ونزلت من طائرة بلا مظلة فإنك لا تنجو من أن تقع مكسر الأضلاع، لأن القانون قائم وواقع آمنت به أو لم تؤمن، قدسته أو لم تقدّسه، قبّله أو لم تقبله، فالقانون واقع، فسُلْطَةُ الله سارية في عباده انتبهوا إليها أو لم ينتبهوا، وأيقنوا أو لم يوقنوا، فلا يمنعك من الله إلا أن تكون على منهجه في أمره ونهيه.

(وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌ (2) وَكَذَّبُوا)

دققاوا:

(وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

العلاقة بين إتباع الهوى و التكذيب:

لماذا كذبوا ؟ لأنهم اتبعوا أهواءهم، ولماذا اتبعوا أهواءهم ؟ لأنهم كذبوا، ماذا نقول في العلاقة بين الكلمتين ؟ نقول هناك علاقة ترابطية، لأن الإنسان حينما يكتب بالأخر فالشيء الطبيعي جداً أن يتبع هواه باعتقاده لا توجد آخرة، ولا حساب، ولا مسؤولية، والقضية عنده عبث، والإنسان يترك سُدِّي، والخلق خلق عبث أي لا غاية له، فلو آمنت هكذا فيجب أن تتبع الهوى، وهذا شيء طبيعي، أما إذا آمنت أن الإنسان لن يترك سدي، وأن الله سبحانه وتعالى لم يخلفنا عبثاً، وأننا سوف نسأل وسيحاسب، وسوف يقتصر مثنا واحداً واحداً، وسوف تسوى الحسابات، وتؤخذ الظلمات، ويدفع الثمن أصحابها غالياً، وعنده يستقيم على أمر الله.

(وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

وهذا المعنى تؤكد له آية أخرى، فالله عزّ وجلّ قال:

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لِيُسْتَخْلَفُوهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتُخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَمْ يُكِنْنَ لَهُمْ دِيَنَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْدُوْنَنِي)

(سورة النور: آية " 55 ")

العلاقة بين إضاعة الصلاة و إتباع الشهوات:

قد يسأل سائل ما الوضع ؟ نحن أين موقعنا من هذه الآية ؟ موقعنا هو قوله تعالى:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوْفَ يَلْقَوْنَ عَيْناً)

(سورة مريم)

لماذا أضاعوا الصلوات؟ لأنهم اتبعوا الشهوات، ولماذا اتبعوا الشهوات؟ لأنهم أضاعوا الصلوات، علاقة ترابطية بين إضاعة الصلاة وإتباع الشهوات.
(وَكَذَبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ)

آية ثالثة:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِبُوا لَكُمْ فَاعْلُمُ أَنَّمَا يَتَبَعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَصْلَلَ مِنْ أَنَّمَا اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعْرُ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)

(سورة القصص)

الاستقرار على الحق أساس كل شيء:

أما الآية الدقيقة:

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌ)

الأمور تستقر على الصحيح، فالباغي تدور الدوائر عليه، والمُخادع يخدع نفسه، والذي يمكر لا يمكر إلا بنفسه، والذي يستهزئ، يستهزئ بنفسه، فالإنسان مهما تحرك فالأمور تستقر على الحق، فتصور كرة وألصق في جدارها الداخلي قطعة رصاص ودحرجها فإنها لا تستقر إلا والرصاصة على الأرض.

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌ)

الاستقرار على الحق، فالله عز وجل يدمر الظالم، وينصر المستقيم، ويرفع مكانة الأمين، ويفضح الخائن، ويدعم الصادق، ويفضح الكاذب، وكل أمر مستقر.

(وَكَذَبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌ)

سنة الله في خلقه:

((البر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، اعمل كما شئت، كما تدين تدان))

(أخرجه عبد الرزاق في الجامع عن أبي قلابة)

لأن الله موجود، ولأن الأمر كله بيده، ولأنه الفعال لما يريد، والقاهر فوق عباده، وهو على كل شيء وكيل، فالبر لا يبلى، والذنب لا ينسى، والديان لا يموت، والمستقيم له معاملة، وله مصير رسمه الله له، في تأييد ونصر وحفظ، فالمنحرف له معاملة، فينكشف انحرافه ويلقي جزاء عمله، والغاش لل المسلمين له معاملة، إذ يفضحه الله ويختسر المال الذي جمعه من غير شئ، فيفضحه الله على رؤوس الأشهاد ويختسر المال بل أضعاف المال الذي جمعه من العيش، والنصوح يرفع الله اسمه ويدعم عمله.

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌ)

والرحيم يتجلى الله عز وجل على قلبه:

(الراحمون يرحمهم الله)

(أخرجه الحاكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص)

فكل أمر مستقر، والغاش يُكشف غشه، والمنافق يُكشف نفاقه، والمُحتال يُكشف احتياله، والأمور لا تستمر على وضعها غير الصحيح، وهذه سُلطة الله في خلقه، فإن إنسان يحتال على الناس، لابد من أن يفضحه الله، وإنسان يكذب، لابد من أن يُكشف كذبه، والأمور لا تستقر، فالحائط لا يستقر إلا إذا بني على شاقول، فإذا بني من دون شاقول أصبح مائلاً ولا بد من أن يقع، ووقوع البناء دليل أنه لم يكن صحيحاً، وثبات البناء دليل أنه بني صحيحاً.

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌ)

زوجان بنتيا زواجهما على طاعة الله، فهذا الزواج يستقر ويتناهى، وزوجان بنتيا زواجهما على معصية الله، فهذا الزواج يتتصدّع وينهار.

الأمور التي يفعلها الله تعالى مبنية على علم منه:

(وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌ)

يوجد معنى آخر لهذه الآية: فالآيات التي يفعلها الله عز وجل مبنية على علم، واستقرار الشيء دليل إتقان صنعته، فأحياناً تكون المنضدة قد صنعت بشكل سريع غير متقن، فهي غير مستقرة، بل تتحرّك، أما إذا كانت مستقرة فمعنى هذا أنها متماسكة، ومتوازنة، ومدروسة، فالاستقرار معناه إتقان الصنعة، وكل أمر خلقه الله عز وجل مستقر على علم، وحكمة، وعدل، ورحمة، وعدالة، وهذا المعنى الثاني.

(وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌ (3)

وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4))

قصص الأقوام السابقة زجر للمنحرفين:

هذا كتاب الله فيه قصص الأقوام السابقين ؛ قوم عاد وثمود، وقوم تبع، وأصحاب الأيكة، وقوم نوح، ولوط، وإبراهيم كيف أنهم كذبوا فأهلكهم الله عز وجل، هؤلاء.

(الَّذِينَ إِذَا اكْتَلُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتُوْفُونَ (2) وَإِذَا كَلَوْهُمْ أَوْ وَرَأُوهُمْ يُخْسِرُونَ (3) أَلَا يَظْنُ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ (4) لِيَوْمٍ عَظِيمٍ (5) يَوْمٌ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (6))

(سورة المطففين)

هؤلاء يحاسبون، فالقرآن فيه قصص الأقوام السابقة، أليست هذه مزدجرأ للمنحرفين ؟ ففي القرآن الكريم آيات كثيرة.

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغْدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمَ اللَّهِ
فَلَدَّاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخُوفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

(سورة النحل)

أليست هذه الأنبياء كافية كي تزجر المنحرفين ؟ ففيه قصص الأنبياء السابقين، أو أقوامهم المكذبين، وفيه آيات الحلال والحرام، والحق والباطل، والخير والشر ، ومشاهد يوم القيمة وما يتعدّب فيه الكفار في النار ، وما يتعمّد فيه المؤمنون في الجنة.

عدم نفع النذر عند تعطيل العقل:

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ

في هذا الكتاب.

(مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ)

ومع ذلك لم يزدروا ، فقد يأتيك طبيب بإحصاءات مذهلة أن نسب الذين يصابون بأمراض القلب من بين المدخنين عشرة أمثل ، طبيب جراح للقلب قال لي بالحرف الواحد: والله أنا أجري عمليات قلب مفتوح منذ سبع سنوات في هذه البلدة، وما دخل إلى غرفة العمليات مريض واحد إلا وهو يدخن ، تعطيه أمثلة، وشواهد، وأدلة، وأقوال، وورما خبيثا في الرئة، والحنجرة، واللسان، واحتمال الغرغرين .. ومرض الموات . وتصلب الشرايين، وضعف القلب، وتسرعه، والجلطة، وإنك تعطيه الأدلة الكافية ومع ذلك يدخن ، الأمر عجيب:

(وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بِالْغُلَامِ فَمَا ثُغِنَ النَّذْرُ (5))

فإن الإنسان إذا عطل عقله فالنذر لا تنفعه.

الإنسان يملك باعثين: العقل و الشهوة:

الإنسان له باعثان: باعث العقل، وباعت الشهوة، فإن استجاب لباعت الشهوة فإنه يمشي في طريق الهلاك، أما إذا استجاب لباعت العقل فهو في طريق النجاة، وإن استجاب لباعت إرضاء الله فهو في طريق السعادة، أما إذا استجاب لباعت إرضاء الذات فهو في طريق الشقاء، إن استجاب لباعت العمل للأخرة كسب الدنيا والآخرة، وإن استجاب لباعت العمل للدنيا خسر الدنيا والآخرة، فيوجد باعثان وليس هناك باعث ثالث، بل حتمية الбаاعثين.

(إِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلُمْ أَنَّمَا يَتَبَعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِنْ أَنَّبَعَ هَوَاهُ بِعَيْرٍ هُدَىٰ مِنَ اللَّهِ)

(سورة القصص: آية " 50 ")

الإنسان إن لم يعرف الله و يطلب الحقيقة لا ينفعه شيء:

لذلك:

(ولَقْدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَتْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجٌ)

فالإنسان أحياناً يجب أن يقف موقفاً جريئاً، فهذا كلام الله، وهل هناك شك؟ لا، فالله عزّ وجلّ يعد العصاة بالنار، فما موقفك؟ وهل أنت مصدق ل لهذا الوعيد أم لست مصدقاً له؟ فالطبيب إذا منعك أكلة تحبها فإنه تمنع عنها، وأنت تحبها جداً، أ يكون وعيid الطبيب أشدّ من وعيid الله؟ أتصدق الطبيب دون أن تصدق الله عزّ وجلّ؟ فالإنسان حينما يعصي الله فهو محاصر، وموضع في زاوية ضيقة، ومنهم بالغباء، وبالكفران.

(ولَقْدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَتْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجٌ (4) حِكْمَةٌ بِالْعَلْفَةِ فَمَا ثُغْنَ الثُّرُّ (5))

أي أن الإنسان إن لم يتخذ قراراً بمعرفة الله وطلب الحقيقة من أعماقه فلا ينفعه شيء، ولو أن الآيات حوله من كل جانب، لو أن الأحداث كلها تؤكّد حقيقة الدين فلا ينتفع بها، أما إذا أراد أن يعرف الله فإن كل شيء في الكون يدلُّه على الله، كونه، وأفعاله، وكلامه.

اختيار الإنسان لطريق الحق أو الباطل:

(حِكْمَةٌ بِالْعَلْفَةِ)

إن الإنسان مخير، وإذا أراد أن يهتدى تعرّف إلى الله من خلال عقله، أو فطرته، أو الأحداث التي حوله، أو كتابه، أما إذا أراد أن يبع شهوته فلو أن الأمور كلها تنطق بحقائق الدين ما استمع إليها.

(ولَقْدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَتْبَاءِ مَا فِيهِ مُرْدَجٌ (4) حِكْمَةٌ بِالْعَلْفَةِ فَمَا ثُغْنَ الثُّرُّ (5) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ)

دعهم لي، هذا كلام فيه تهديد، دعهم يا محمد لقد أصمّوا آذانهم، حبهم للدنيا أعماهم وأصمّهم، دعهم لي، إن لم يستجيبوا لك فتول عنهم.

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ)

ليوم عسير:

(يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ كُثُرٌ (6) حُشْعَأْ أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ (7))

مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ (8))

خيارنا مع الإيمان خiar وقت فقط:

إخواننا الكرام: الحقيقة خطيرة جداً، أنت خيارك مع الإيمان خiar وقت (دققوا فيما سأقول)، إن لم تؤمن الآن وأنت صحيح، قوي، غني، هي، فهذا أخذته من قول النبي الكريم

((اغتنم خمسا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراحك قبل شغلك، وشبابك

قبل هرمك، وغناك قبل فدرك))

(أخرجه الحاكم، والبيهقي، عن ابن عباس، وأحمد عن عمرو بن ميمون)

فإن لم تؤمن وأنت شاب، صحيح، غني، فارغ، حي، فلا بد من أن تؤمن بعد فوات الأوان، ففرعون

قال:

(آمَّتْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَّتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

(سورة يونس: آية ٩٠)

قيل له:

(الآن وَقْدْ عَصَيْتَ قَبْلَهُ)

(سورة يونس: آية ٩١)

ما نفع إيمانك الآن؟ نحن مع الإيمان ليس خيارنا خيار قبول أو رفض، بل خيار وقت فقط.

الحقائق التي يعرضها القرآن ستراها إن لم تؤمن بعد مغادرة الدنيا:

ذكرت هذا في الأسبوع الماضي: أن الفرق بين المصاب بالإيدز والحامل لهذا الفيروس ليس فرقاً في النوع لكنه فرقٌ في الوقت فقط، فالإصابة ظهرت عليه أعراض الإيدز المرعبة، وأما الحامل لأعراض الإيدز المرعبة فهي طريقة إلى الظهور، إنها لم تظهر بعد، فالقضية قضية وقت بينهما، وليس هناك فرقٌ نوعي بل فرق زمن، ونحن إن لم نؤمن فلا بد من أن نؤمن، وجميع الحقائق التي يعرضها القرآن الكريم سوف تزونها رأي العين عند مغادرة الحياة.

(رَبَّ ارْجُونَ (٩٩) لَعَلَّيْ أَعْمَلُ صَالِحًا)

(سورة المؤمنون)

غير الذي كنت أعمل، وغير الذي كنّا نعمل.

(أوَمْ لَعَمِرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ)

(سورة فاطر: آية ٣٧)

يوجد نذير.

(وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدِيهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي أَتَخَذَتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَخَذْ فَلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَنِي عَنِ الدِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَنْوَلًا (٢٩))

(سورة الفرقان)

أهوال يوم القيمة:

(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ)

هذه الكلمة مخيفة جداً، أي إن لم يستجيبوا لك يا محمد دعهم لي، دعهم ليوم تشيب فيه الولدان، ولليوم لا يُنسى فيه شيء إنه يوم المهوٌ الأعظم، قال عليه الصلاة والسلام:
((يحشر الناس يوم القيمة حفاةً، عراةً، غرلاً))

(منْفَعٌ عَلَيْهِ عَنْ عَاشَةَ)

أي بغير ختان، فقالت يا رسول الله: هكذا يرى بعضنا بعضاً بلا ثياب؟ فقال عليه الصلاة والسلام:
((يا أَمَّ الْمُؤْمِنِينَ الْأَمْرُ أَفْطَعَ مِنْ أَنْ يَعْنِيهِمْ ذَلِكَ))

لشدة المهوٌ لا يعنيهم ذلك، فأحياناً تقول الأم لابنها وقد وقعت عينها على عينه يوم القيمة، تقول:
" يا ولدي لقد كان بطني لك وعاءً، وصدري سقاءً، وحجري وطاءً، فهل من حسنةٍ يعود على خيرها اليوم؟ قال: ليتني أستطيع ذلك يا أماه إنني أشكو مما أنت منه تشكين " ، هذا هو يوم القيمة، كل شيء فعله الإنسان سيُحاسب عليه، فإذا لم تستجب الآن ونحن أصحاب، أشداء، أحباء، وعندها وقت فراغ، إن لم نستجب الآن يقول الله لنبيه:
(فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ ثُكْرٍ (6) حُشِّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ
مُنْتَشِرٌ (7) مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِيرٌ (8))

محاسبة النفس قبل فوات الأوان :

(فِإِذَا نَقَرَ فِي النَّافُورِ (8) فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (9) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٌ (10))
(سورة المدثر)

دققوا أيها الأخوة وتوبوا إلى الله قبل فوات الأوان، واصطلحوا مع الله قبل أن يأتي يوم لا نستطيع ذلك، فعالجوا أنفسكم، وحاسبوها قبل أن تُحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، فهذه الآيات أيها الأخوة في درس قادم إن شاء الله نتابع تفسيرها مبتدئين بقوله تعالى:
(كَذَبْتُ قَبْلَهُمْ قَوْمٌ ظُوحٌ فَكَذَبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجَرٌ)
والحمد لله رب العالمين